البابُ الثّالث

الجامعةُ الإسلاميّة

الوحدةُ الإسلاميّة في سياسة السّلطان عبد الحميد الخارجية

الفصلُ الأوّل
من المسألةِ الشرقيّة إلى الجامعة الإسلاميّة

(الدولةُ العثمانية.. من اليأس إلى الأمل)

تعرف المسألة الشرقية: «بأنها قضيةُ اتفاق الدول الأوروبية وروسيا على إنهاء وجود الدولة العثمانية- وهي رأسُ العالم الإسلامي المُعَبَّر عنه بالشرق- وبذلك يتفتّت العالم الإسلامي ويكون طواعية للأطماع الغربية خاضعًا للحركة الاستعمارية العالمية».

وبدأت المسألة الشرقية بهذا المعنى حين ضعفَ آل عثمان، بعد قوّة وشموخ وانتشار، وصاحبَ هذا الضعف نهضةُ الدول الأوروبية وروسيا، وأخْذها بالعلوم الحديثة، وقيام هذه الدول بالتحالف ضدّ العثمانيّين.

***

أمّا الجامعة الإسلامية، فلم تظهر في معتركِ السياسة العالمية، إلّا في عهد السّلطان عبد الحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السّلطان عبد الحميد عرشَ الدولة العثمانية عام ١٨٧٦، ووجد أنّ السياسة في دولته إنّما

يقوم بالتّخطيط لها وتنفيذها، وزراء أخذوا مثلهم الأعلى من أوروبا. وقد آمنوا بفكرها، وجدّوا في السير على منوالها. وقام هؤلاء في أوائل أيّام سلطنة السّلطان عبد الحميد بالزجّ بالبلاد العثمانية- وهي على ضعف ظاهر- إلى الحرب ضدّ روسيا- القوية قوةً ظاهرة- ولم تتحْ للسّلطان فرصة المعارضة؛ فنال البلادَ العثمانية من الأذى ما أسهمَ في تأخّرها، زيادة على تأخّرها السابق. فانتهز السّلطان عبد الحميد فرصةَ التقاط أنفاسه، حاكمًا جديدًا، وجرّد هؤلاء المتأثّرين بالفكر الأوروبي من سُلطاتهم، وتولّى هو قيادة البلاد، قيادة حازمة، وأحسنَ التعاملَ السّياسي في المعترك العالمي، بحيث جعل البلاد الأوروبية التي تولّت حماية اليونان، تقف موقف الحياد في النزاع العثماني اليوناني، وأدارَ السّلطان بنفسِه الحربَ العثمانية اليونانية- على صغرها- فانتصرت القوات العثمانية انتصارًا باهرًا، فهرولت الوفودُ الإعلامية من مختلف بقاع الأرض لتهنئة السّلطان بالانتصار، وقام شعراءُ المسلمين في مختلف بلاد الإسلام بنظم القصائد في مدح «خليفة المسلمين السّلطان عبد الحميد الثاني». وشكّل السوريون اللّجان لجمع التبرعات- أثناء هذه الحرب- لمساعدة الدولة العثمانية. كما شكّلوا لجانَ الهلال الأحمر لمعالجة جرحى هذه الحرب، ومواساة أهلها. وأقام مسلمو شمال إفريقيا الأفراح ابتهاجًا بانتصار الجيوش العثمانية على اليونان، رغم معارضة

سلطات الاحتلال الفرنسية لذلك. ووصفت هذه السلطات فرحةَ المسلمين في شمال إفريقيا لهذا الانتصار العثماني بأنّه «ناتجٌ عن التعصب الديني الأعمى»[1]. وكوّن مسلمو الهند اللّجان لجمع التبرعات وإرسال المساعدات الماليّة والطبيّة للدولة العثمانية، لمساندتها في حربها مع اليونان، وإرسال ممثلين عن الجمعية الإسلامية في حيدر آباد الدكن، إلى جريدة المؤيّد المصرية يقولون: «إننا مسلمون، وجلالةُ السّلطان عبد الحميد خليفة المسلمين الأعظم. فنحن إذًا مِن رعيّته؛ لذلك نرى من الواجب علينا: أنْ نلبي دعوته ونؤدّي- مثلنا في ذلك مثل العثمانيّين- المعونة العسكرية التي فرضها جلالةُ السّلطان ليقوّي بها جيشه الحامي لعرش الخلافة المقدّسة»[2].

هذا الشعور الإسلاميّ العام، والتربيةُ الشخصية للسّلطان عبد الحميد وتفكيره المعاكس للغرب جعل السّلطان يدرك أنّه من الممكن

---

(١) إحسان ثريا صيرما، وثيقة عن فعاليات السلطات عبد الحميد الإسلامية ضدّ الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا، مجلة معهد التاريخ، استانبول ١٩٧٧، مُسْتَلَّة، ص ١٨٠.

(٢) أفهد الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٠٩ م، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور صلاح العقاد والدكتور محمد حرب، مُجازة من جامعة عين شمس عام ١٩٨٣م، الرسالة ص ٢٩٠ عن جريدة المؤيد العدد ٣٠٨٦ في ٢٧/ ١/ ١٨٩٧م مقال بعنوان «الدعوة إلى مساعدة الخليفة الأعظم». وسيشار إلى هذا المرجع الذي حوى نُقُولًا مفيدة، باسم الشوابكة.

إيجادُ بديل للسياسة العثمانية، ووجدَ هذا «البديل: «الاتجاه إلى داخل الأمّة لإصلاح الدولة» عوضًا عن «الاتجاه إلى الخارج للإصلاح» فأخذَ في سياسته القائمة: على تحدّي الأطماع الغربية في بلاد المسلمين بتكتيلِ المسلمين على كلمةٍ واحدة، وشعورٍ واحد.

لم يكن السّلطان عبد الحميد يهدفُ إلى إقامة رابطةٍ سياسية تضمّ كلّ بلاد المسلمين في وحدةٍ سياسية واحدة. وإنما أراد جمعَ شعور المسلمين في حركةٍ واحدة تؤكّد وحدتهم وتقوّيهم في مواجهة أعدائهم. وبذلك:

- يقفُ المثقفون ثقافةً غربية، والذين توغّلوا في المراكز الإدارية والسياسية الحساسة في أجهزة الدول الإسلامية عمومًا، وفي أجهزة الدولة العثمانية خصوصًا؛ عند حدّهم، عندما يجدون أنّ هناك سدًّا إسلاميًّا ضخمًا وقويًّا يقف أمامهم.
- تقفُ الدول الاستعمارية الأوروبية وروسيا، عند حدّها عندما تجد أنّ المسلمين قد تكتّلوا في صفٍّ واحد، وقد فطنوا إلى أطماعهم الاستعمارية فطنةً بمنظارٍ جديد، هو منظار «الوحدة الإسلامية».
- إثبات أنّ المسلمين يمكن أنْ يكوّنوا قوةً سياسية عالمية، يحسب حسابُها في مواجهة الغزو الثقافي والفكري والعقدي الروسي-الأوروبي النّصراني.
- تأخذ الوحدةُ الإسلامية الجديدة دورَها في التأثير على السياسة العالمية.

- تستعيدُ الدولة العثمانية، بوصفها دولة الخلافة الإسلامية، قوتها بعد ضعف تاريخي، وبذلك يمكن إعادة تقويتها، وتجهيزها بالأجهزة العلمية الحديثة في الميادين كافة، وبذلك تستعيد هيبتَها، وتكون درسًا تاريخيًّا يقول: «إنّ العمل على تقوية الكيان السياسي والاجتماعي الإسلامي، أفضلُ من إلقائه أرضًا، وتكوين كيان غريبٍ فكريًّا واجتماعيًّا على نفس الأرض».
- إحياء منصبِ الخلافة ليكون أداةً قوية، وليس صوريًّا كما حدث لفترة. وبذلك لا يكون السّلطان وحده فقط هو الذي يقف في مواجهة أطماع الغرب وعملائه في الداخل، وإنما هي وحدةٌ شعورية بين شعوب المسلمين جميعًا. يكون هو الرمز والموجّه والموحّد.

وإلى هذا أشار المؤرخ البريطاني «أرنولد توينبي» في قوله: «إنّ السّلطان عبد الحميد، كان يهدف من سياسته الإسلامية، تجميعَ مسلمي العالم تحت رايةٍ واحدة، وهذا لا يعني إلّا هجمةً مضادّة، يقوم بها المسلمون ضدّ هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين»[1].

***

(١) إحسان ثريا صيرما، دور الطرق الصوفية في سياسة السّلطان عبد الحميد الثاني الخارجية، مجلة الإسلام، أنقرة نوفمبر ١٩٨٤ ص ٤٠-٤٣. انظر في ذلك أيضًا: محمد حرب، المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحركة حزب السلامة في تركيا، بحث في ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر بالبحرين، عام ١٩٨٥، ص ٤٤٢.